قصة قصيرة

نافذة للشمس

فيصل عبد الحسن عاجم

بعد منتصف الليل بساعة استيقظ من نومي ، وعندما أضيء غرفتي ، اجد التمثال الصغير البرونزي يحدق فيّ ، أكون قد رأيت حلما متشعبا ، وقد جفت شفتاي من صراخ وهمي أتعبني ساعات طويلة ، وفي لحظات صفاء رائعة ، أجد نفسي وحيدا تماما ، فالتحف باللحاف الذي يتكوم عند أقدامي ، وعندما أزيح ستارة النافذة التي تطلّ على حديقة الحوش ، أرى الظلام حالكا . فأشعر بالخوف وأنكمش تحت الغطاء مراقبة ثنيات اللحاف العاكسة للضوء . وأغمض عينيّ كأنما أنصت الى موسيقى تنبعث من ركن قصيّ . وانام هكذا وأنا جالسة ، وكأني أغمضت عينيّ لحظة ، وحالما أفتح عينيّ أرى الفجر وأرى تمثالي البرونزي يحرك جناحيه كأنما يتطلع معي الى النافذة ليرى انسكاب الفجر من خلالها مثل سائل سحري .

(قرب المرافىء الخشبية حيث تنطلق طيور النورس بعيدا على طول النهر الفارق في الخليج احدّ البصر ، وتستغرقني رؤية الزوارق الذاهبة أو أدخنة السفن الكبيرة المارة ، كأني أنتظر شيئا ما بالرغم من اني أصبحت عجوزا منذ وقت طويل وبدات أشكو من مفاصلي كثيرا ، وفي ذلك الضباب الكثيف البعيد أرى شيئا ما يتموج مثل قبة لها شكلّ نصف كرة ، واهجس هاجسا قويا بأني سأرى شيئا ما قادما من الشرق ، كتلة ضخمة تشقّ الماء بعنف . وأغض طرفي صوب جريدتي التي أتوقف عند السطر الاول منها .. أرقب الطيور العائمة أحيانا أو المنقضة على فرائسها ، والرجال المبللة ملابسهم حتى نصفهم وهم يلقون بشباكهم في الماء ، واهتزاز الزوارق تحت أقدامهم من جراء حركاتهم العنيفة ، وأحسّ بالنهر عميقا وبمياهه المعتمة التي تنبىء عن ذلك الغور . أفتح من جديد الرسالة التي بعثها مكتب التشغيل لي من جديد واعيد قراءتها ، وعندما أكمل قراءتها أحسّ بأني أصبحت عجوزا حقا وليس لي القدرة على العمل ، وحالما أرفع وجهي صوب النهر أرى الطيور تطير موازية لماء النهر ، أشعر بالبرد فاترك الكرسي الطويل المواجه للنهر وأمرّ في أزقة ضيقة ومن درف الابواب المفتوحة أرى النساء يغسلن بعض الاواني أو يتشاجرن ، أو ينشرن الغسيل فوق السطوح، أما العجائز فتحت أشعة الشمس في منعطفات الزقاق يجلسن ويدخنّ بشراهة) .

كان ابنها جالسا في الغرفة التي أجرتها منذ أسبوع حينما دخلت ، وقف وهو يرحب بها ، ومن خلال زجاج نظارته رأت عينيه تطفحان بالدهشة ، قالت له وهي تبتسم :

ـ أرجو أن لاتدهشك جولاتي الصباحية ...

جلس من جديد ، وحاول أن يبتسم ، وأكملت الأم :

ـ لست عجوزا جدا ...

قهقهت المراة ، ثم رفعت يديها مشيرة الى غرفتها :
ـ انها مريحة ومرتبة ، أليس كذلك ؟.. كانت في البداية مليئة بالتراب ، وورق الجرائد الاصفر ، والرطوبة ، ولكنني نظفتها كما ترى ، ولأني وحدي هنا فأنا لا أحتاج الى تنظيفها دائما .

قاطعها الشاب ذو النظارات منفعلا :
ـ لن أتركك هنا لوحدك ...
ـ لقد تناقشنا في هذا يا ابني ، لا داعي لاعادة هذا الحوار الممل ..

نظر الشاب صوب التمثال البرونزي الموضوع فوق رف خشبي مسند الى الجدار :
ـ ستعتذر منك زوجتي ...

ابتسمت المراة ، وتحركت في الغرفة :
ـ سأعدّ لك شيئا تأكله ، انك تبدو شاحبا ..
ـ لقد تناولت فطوري ولست جائعا ..
ـ اذن سأعدّ لك شايا ..

أخذت تهيىء أقداح الشاي ، والسماور ، وأثناء اعدادها للشاي لم تنقطع عن التحدث لابنها :

ـ لقد تعبت حتى حصلت على قنينة الغاز هذه . السيارات التي تبيع قناني الغاز المملوءة لا تمرّ من هنا ، بل من الشارع الفرعي ، وكان عليّ أن أدفعها بقدمي كل تلك المسافة الطويلة . حالما أشتغل سأشتري غلاية شاي كهربائية ...

كان الشاب ينظر الى أشياء الغرفة ، وفي رأسه كان يتخيل أمه تنكمش من البرد في الليل ، في هذه الغرفة الرطبة، ورأى فوق ملابسها المعلقة آثارا من تراب السقف الساقط ، وتخيل التمثال البرونزي مثل قطعة الجليد الطافية في الغرفة الخالية الا من أشياء قليلة ، وسرير حديدي ونافذة من الشرق تستقبل الشمس كل صباح .
ـ اني أشعر بالتعب كلما صعدت الدرج الى غرفتي ...
ـ ولكن كان بامكانك أن تؤجري غرفة في الطابق الارضي ...
ـ في الغرف الارضية تسكن عوائل لديها أطفال بقدر حبات الرز ...
ـ ان غرفتك هادئة ...

استمر الصمت لحظات ، خلالها كان الماء الحار ينوس داخل ابريق الشاي ، ثم قطعته المراة وهي تأخذ الخطاب من بين صفحات الجريدة .

ـ لقد رفض مكتب التشغيل ايجاد عمل لي ... تصور انهم يعتقدون اني عجوز جدا ، ولا أستطيع أن أعمل ...

قهقهت ضاحكة ، بينما انتقلت عينا الشاب من التمثال البرونزي صوب صورة أبيه المعلقة بالجدار ... وسمعها تقول :
ـ ولكني سأجد عملا ما ، حتما .
ـ أرجو أن تعودي معي الى البيت .

ضحكت المراة من جديد ، وقالت وهي تضع حفنة من ورق الشاي في ابريق الماء الذي يغلي بصوت عال :
ـ أريد أن تكون سعيدا مع زوجتك وطفلكما ، اني عجوز ثرثارة .. ولن تكونا سعيدين اذا بقيت معكما.

اختنقت من جديد ضاحكة ...
ـ ولكن ما الذي أقوله للناس حينما يعرفون انك تعملين وأنت في هذه السن ؟
ـ أرجو أن لا تهتم بما يقوله الآخرون ...

ومن خلل النافذة كانت مياه النهر تنعكس بضوء الشمس وقمم السفن تبعث دخانا كثيفا ، ومن مكان المراة كانت تبدو السماء الزرقاء رائعة مفتوحة الى الابد أمام الطيور المهاجرة الى أصقاع بعيدة باردة ورطبة .

ـ لقد وعدني رجلٌ عجوز بالعمل في معهد الآلة الطابعة القريب ... قلت له اني قد نسيت الضرب على الآلة الطابعة ، ولكنه قال اني سأتمرن عدة أيام قبلَ أن يختبرني صاحب المعهد ، وسأدرّس طالبات صغيرات أصول الضرب على الآلة الطابعة ، أليس هذا جميلا ؟

وراقب الشاب انعكاس ضوء فوق عيني صورة أبيه فغضّ بصره عن الصورة ، بينما امتدت يده تأخذ قدح الشاي ... وأخذا يرشفان الشاي معا . ابتسمت الأم ، وغارت عيناها في الماضي البعيد :
ـ لقد مرضت في يوم ما عندما كنت صغيرا، وقد حملتك فوق صدري ورحت مع أبيك نشق طريقنا في طريق طويل بعد منتصف الليل بساعات ، نبحث عن طبيب ، كان مسكنه بعيدا في أطراف المدينة ، وكان علينا أن نسير لمدة طويلة ، ولم تكن هناك واسطة تقلّنا ، وأخبرنا الطبيب أن نبقيك سعيدا قدر ما نستطيع حتى لا تعاودك النوبة ...

نظر الشاب في ساعته ، ثم قال لها بخجل ، وهو يمدّ يده الى جيبه :
ـ هل أنت محتاجة للمال ؟

أمسكت يده :
ـ لا ، أبدا .. عليك أن تسدد أقساط السيارة والغسالة الكهربائية ، وأنا هنا لا أصرف شيئا ذا قيمة.
ـ اذا احتجت الى أي شيء أخبريني ، واذا عدلت عن رأيك في البقاء هنا ، فبيتي مفتوح لك دائما ...

ضحكت المراة :
ـ لا أريد شيئا سوى سعادتك ...

حينما أغلقت باب الغرفة من ورائه ، وقفت قرب النافذة وبيـــدها قدح شايها ترقب السطوح القريبـة الجرداء .

في صباح ممطر شربت شايا أعـــدته بنفسها ، ولبستمعطفها الثقيل ، بينما كانت قطرات المطر تسقط بشكل مائل وتغسل زجاج النافذة . خرجت من غرفتها ونزلت الدرج الحجري بحذر ، وخرجت الى الشارع . كان البرد شديدا فشدت معطفها حول جسمها جيدا . كانت تشعر بالخوف مـــن الاختبار وأصابعها المتجمدة المختفية في جيوب المعطف ترتجف ، ولكنها ابتسمت ، تذكرت انها تمرنت جيدا خلال الايام الماضية ، ولكنهـا بطيئة ، بطيئة جدا . هذا ما قاله لها الرجل العجوز . رات صورتها فـــوق واجهات المحـــلات الزجاجية ، واستطاعت أن تخمن ان لها وجها شاحبا ، وان أعضاءها متوترة ..

انحرفت عن السوق ، وفي بدايـــة الشارع عند بناية عالية صعدت درجا حجريا ، وعندما وصلت الـى الطابق الثاني شعرت بأنفاسها تتقطع ، وبأنها مضطربـة جدا . رآها صاحب المعهـــــد ، فقالت له وانفاسهـا تتقطع :

ـ جئت لتختبرني ، لكي أشغل المكان الشاغر .

فوجيء الرجل بسنّها :

ـ انت صاحبة الطلب ؟

ـ أجل أنا .

ـ تفضلي معي .

قادها الى غرفة صغيرة فيهـا آلة طابعة قديمة ، وطلب منها أن تطبع جملا قالها . كانت أصابعها ترتجف، والجمل لا تسمعها جيدا ، والمعطف الثقيل أخذ يعيـق حركتها ، فشعرت بالاختناق . وفكرت لو انهـا خلعت المعطف ، ولكن الرجل كان مستعجلا ... وحالما أخـذ منها الورقة ، قال :

ـ لا أبدا ، انك لا تصلحين ...

ابتسمت المراة : ـ لقد أعاق المعطف حركتي ... ولكن لا بأس ، سأجد عملا آخر .

حينما خرجت مـــن المعهد اتجهت صوب النهر ، كان المطر قد توقف، وبدأت الشمس تشرق من جديد . وعندما أصبحت قرب الكرسي الطويل رأت طيرا يبدو وكأنـــه ضلّ الطريق ، أو عجوزا لم يستطع أن يتبع الطيور المهاجرة ، كان يحلّق عند منتصف النهر قريبا من الماء ، ثم رأته يسقط فوق الماء ، وتخيلت المراة ان النهر سيبتلعه ، ولكنه كان يقاوم الماء بجناحيه ، ثم رأتـــه يطير من جديد بسرعة أكبر ويحلّق بعيدا ، بعيدا صوب البرد والرطوبة ...

البصرة (العراق)

صدر حديثا

روايات وقصص

د. سهيل ادريس

في طبعـة جديدة :

الحي اللاتيني

(الطبعـة السابعـة)

الخندق الغميق

(الطبعة الثالثـة)

اصابعنا التي تحترق

(الطبعة الثالثـة)

قصص سهيل ادريس

في جزئيـن :

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب